# الفصل الثانى

# النظرية السوسيولوجية
# بناؤها ووظائفها

## المحتويات

مقـــــدمة

أولاً : حول مفهوم النظرية السوسيولوجية

ثانياً : بناء النظرية السوسيولوجية ، عناصره ، وعملياته

ثالثا : النظرية السوسيولوجية ، ووظائفها الرئيسية

## مقـــدمة

تبلورت النظرية الاجتماعية كوحدة أساسية فى بناء علم الاجتماع . ويمكن القول بأن الاختلاف الرئيسى بين الفكر الاجتماعى وعلم الاجتماع يتمثل فى امتلاك الأخير لثلاث مكونات ، والعلاقة بينها منتظمة وواضحة ، النظرية والمنهج والظواهر أو الوقائع التى تشكل اطار بحث العلم . وفى هذا الاطار تعتبر النظرية هى أكثر هذه المكونات الثلاث أهمية لأعتبار أنها التى تحدد الظواهر موضع الدراسة ، ثم هى التى تحدد أكثر المناهج ملائمة لدراستها .

ويمكن القول بأن هناك علاقة وظيفية بين هذه المكونات الثلاث ، حيث تتناول هذه المكونات الثلاث الآداء الوظيفى فيما بين بعضها البعض . فالبنسبة للمنهج تحدد النظرية المنهج الأكثر ملائمة لدراسة الظاهرة ، ثم هى التى توفر الفروض التى تشكل أحد عناصر المنهج العلمى ، بل هى العنصر الذى يوجه عمليات البحث الواقعى ، ثم هى التى تمتلك القضايا القادرة على تفسير المعطيات التى قد ترد من الواقع من خلال المنهج ثم هى بين هذا وذاك تقدم الاطار الذى بالنظر اليه يمكن تصنيف وتحليل المعطيات .

إلى جانب ذلك فللنظرية آدائها الوظيفى بالنسبة للواقع . فمن خلال النظرية يستطيع الباحث تصنيف المعطيات المتعلقة بالظاهرة ، وتحليلها ، بهدف الوصول الى القوانين المنظمة لتفاعل عناصر الواقع مع بعضها البعض ، بهدف ترشيده ودفعه فى اتجاهات محددة . فإذا كانت هذه الاجراءات على درجة من الاحكام . فإن ذلك من شأنه أن يرفع من القدرة التنبؤية للنظرية .

فى مقابل ذلك فاننا نجد أن المنهج هو الذى يتولى اعادة إختبار قضايا النظرية فى إطار الواقع للتأكد من استمرار صدقها أو ثبات زيفها ، إضافة الى ذلك فللواقع آدائه الوظيفى بالنسبة للنظرية ، حيث نجد أن الواقع عادة هو الذى يعمل على تطوير مفاهيم النظرية بحيث يجعلها أكثر دقة فى التعبير عن المتغيرات الواقعية ، يضاف الى ذلك فإننا نجد ان المتغيرات الجديدة التى قد تظهر فى الواقع من شأنها أن تعدل بناء النظرية عن طريق طرح قضايا جديدة عليها ، أو أشكالاً معدلة للقضايا القديمة .

ذلك يدفعنا الى القول بان النظرية تعتبر أخطر وحدات العلم ، لأنها التى تطبع العلم بطابعها أولاً ، ثم هى التى تتولى طرح تصور محدد ومتميز للواقع من خلاله ترتب متغيرات هذا الواقع – تصوريا – بهدف العمل على ترشيد حركته المستقبلية . يضاف الى ذلك ، فإننا نجد أنه بمجرد استكمال العلم بناء نظريته ، فإن ذلك يؤدى عادة الى نتيجتين الأولى ، قدرة العلم

على التقدم وتحقيق درجة عالية من التراكم ، وأيضا كفاءته العالية على التحكم فى ظواهر الواقع بهدف ترشيد حركتها المستقبلية . وفيما يلى نعرض تفصيلا لكل من هذه القضايا .

## أولا : حول مفهوم النظرية الاجتماعية

يذهب روبرت ميرتون الى أن مفهوم النظرية مهدد الآن بأن يفقد معناه « ومع ذلك فهو يشير اليها من حيث كونها مجموعة من التصورات المترابطة منطقيا ، تلك التصورات المحدودة والمتواضعة ، وليست الشاملة المتضمنة لكل شئ [٣٣] ، ثم يؤكد ان النظرية تبدأ فى الظهور حينما تترابط المفاهيم فى شكل قضايا ، بحيث تصبح هذه القضايا تجريدا للعلاقة بين متغيرات واقعية ، وحينما تترابط القضايا فان النظرية تتكون [٣٤] . بينما يذهب بارسونز الى أن النظرية تتصل بكيان من المفاهيم المترابطة منطقيا ، الا أن ذلك لاينفى وجود مجموعة من القضايا العامة ذات العلاقات المنطقية التى ترتبط فيما بينها ويمكن أن تؤلف كيانا نظريا . ثم يؤكد أن قضايا النسق النظرى ينبغى أن تكون لها اسناداتها الواقعية [٣٥] . ويقنن براثوايت التحديدات السابقة ، معرفا النسق النظرى بأنه مجموعة من القضايا التى تتخذ ترتيبا خاصا فى هذا النسق ، بحيث تكون مترابطة منطقيا ومتميزة بالتدرج المنظم غير المتناقض ، وتشير القضايا العامة فى النظرية الى المقدمات ، أما القضايا المستنبطة فتمثل النتائج [٣٦]

ويكشف تحليل مجموعة التعريفات السابقة عن ضرورة وجود ثلاثة عناصر أساسية بالنسبة لبناء النظرية السوسيولوجية وهى المفاهيم والقضايا والبناء المنطقى . أما المفهوم كما يعرفه ماكليلاند فهو تمثيل مختصر لمجموعة من الحقائق [٣٧] بمعنى ان مفاهيم علم الاجتماع هى رموزلفظية مميزة تعطى لأفكار معينة تم تجريدها عن الملاحظة العلمية للمجتمع [٣٨] . اذن فالوظيفة الأساسية للمفهوم أنه يجرد الواقع تحت رمز معين وأعنى بالتجريد أنه يفصل الظاهرة أو الحقائق موضع الاهتمام عن الارتباطات الأخرى – التى لايحتاجها العلم – عن المركب الكلى للظاهرة [٣٩] ، ويؤكد ميرتون أن المفاهيم لاتشكل فى ذاتها نظرية وأن كانت تشارك فى بناء النسق النظرى . فالمفاهيم ليست سوى تحديدات لما ينبغى ملاحظته ، ويعتبر انتقاء المفاهيم الموجهة لجمع المعطيات وتحليلها ذا أهمية جوهرية بالنسبة للبحث الامبيريقى . فلكى يقرر الباحث حقيقة هامة ، فان عليه ان ينتقى المفاهيم التى يمكن تأسيس علاقات بينها . بغير ذلك فسوف يصبح البحث ضحلا بغض النظر عن دقة الاستنتاجات والملاحظات التالية [٤٠] .

ويفيد تحديد المفهوم فى أداء عدة وظائف رئيسية ، منها توضيح المعطيات التى تندرج تحت المفهوم ، ومن ثم يساعد ذلك على التقليل من تدخل المعطيات الغريبة ، وضم المعطيات الخارجة عنه والتى ينبغى أن تندرج تحته . ونجاح المفهوم فى تحديد معطياته الأساسية قد يفيد فى ازالة كثير من الغموض المتضمن فى بعض النظريات . بل يؤدى أحيانا الى تأسيس سلسلة عديدة من الفروض التى توسع من نطاق النظرية . مثال ذلك تلك الآثار التى ترتبت على تحديد عالم الجريمة أودين ساذرلند لمفهوم الجريمة (٤١) . بالاضافة الى ذلك يفيد المفهوم فى الغاء التناقضات الظاهرية فى المعطيات الامبيريقية عن طريق تقرير أن هذه التناقضات ظاهرية فقط . كذلك يفيد تحديد المفهوم أو التوضيح التصورى فى تحديد المؤشرات التى يمكن ملاحظتها بالنسبة للمعطيات الاجتماعية التى يهتم بها البحث الامبيريقى (٤٢) . هذا وينبغى التأكيد على مسألتين : الأولى ، ان المفهوم بذاته لايشكل الوحدة التحليلية الأساسية للنظرية ، والثانية ، ان المفهوم يتغير بتغير معطيات الواقع ، وأيضا وفقا للسياق العام للمجتمع والايديولوجيات التى تحكم تفاعله . فمفهوم الجريمة فى مجتمع شرقى غيره فى مجتمع غربى ، وما كان يتسير اليه مفهوم الدين فى المجتمعات البدائية غير متضمناته فى المجتمعات المعاصرة .

وتشكل القضية الوحدة الثانية فى بناء النظرية . وتعرف القضية على أنها تعبير عن الواقع الاجتماعى يتضمن مفهومين أو أكثر ، والعلاقة بينهما ، ويمكن اخضاعها للبحث العلمى ، ومن ثم فالقضية تعبر عن العلاقات بين المفاهيم . وقد يشار الى القضية أحيانا باعتبارها فرضا ، أى تعميما مبدئيا واحتماليا يخضع للاختبار الامبيريقى للتعرف على صدقه أو خطئه ومن ثم فقد ينظر الى النظرية على أنها مجموعة من الفروض (٤٣) . وتنقسم القضايا الى نوعين من حيث التدرج فى بناء النظرية ، القضايا العامة ذات الترتيب أو النظام الأعلى . أما الأقل عمومية فهى تلك التى يسميها بالقضايا ذات النظام الأدنى أو القضايا الامبيريقية . ومن المهم القول ان القضايا ذات النظام الأدنى أحيانا ماتشتق من القضايا العليا تحت شروط معينة (٤٤) . وهو مايتضح من تعريف براثوايت حيث يقسم قضايا النظرية الى قضايا عامة ويعتبرها مقدمات ، أما القضايا الناتجة عنها أو المشتقة منها فيعتبرها مستنبطات ، تأكيدا على العلاقات المنطقية القائمة بين قضايا النسق النظرى . بحيث لايمكن أن يكون ثمة تناقض بينها ، وهناك من يؤكد انقسام قضايا النسق النظرى الى قضايا بسيطة وأخرى مركبة . وتنقسم القضايا من حيث صلتها بالبحث الامبيريقى الى قضايا نظرية وقضايا امبيريقية

موجهة بالأولى وقد تكون مشتقة منها . هذا ومن الممكن أن تصبح أيا من قضايا النسق النظرى فرضا يخضع للاختبار الامبيريقى . فاذا تأكد صدقه ارتقى الى مستوى القانون الامبيريقى ، أو صعد الى مستوى التوجيهات النظرية العامة .

ويشير البناء المنطقى كمفهوم ثالث فى تحديد بناء النظرية الى الهيكل البنائى الذى تنتظم فيه قضايا النسق النظرى ، ما يعتبر منها قضايا مقدمات أو توجيهات نظرية عامة ، أو ما يعتبر قضايا من المستوى الأدنى . ويؤكد ايرنست ناجل أنه حينما تكون النظرية دقيقة التنظيم فانها عادة ماتكتسب شكل النسق الاستنباطى . بحيث تشكل الافتراضات الرئيسية للنظرية البناء العلائقى المجرد لها (٤٥) . وحتى تصبح النظرية العلمية أكثر نضجا فانها تميل لأن تشكل نسقا مغلقا ومنسقا . ويساعد امتلاك النظرية لبناء منطقى متسق على اشتقاق الفروض التى من غير المحتمل ان تتناقض بعضها مع البعض . بالاضافة الى ذلك تساعد النظرية المتكاملة على تأكيد اثباتها بدرجة تفوق الحالة التى يكون فيها الاطار النظرى متضمنا بعض الفروض المتميزة والمنفصلة بعضها عن البعض . بيد أن التأكيد على الاتساق المنطقى أحيانا مايفتح الباب لنوع من الجدل اللفظى والتنظير العقيم . مادامت الإفتراضات النظرية بعيده عن أى اسناد امبيريقى ، أو أنها قد تتضمن مستويات عليا من التجريد الذى يقدمه البحث الامبيريقى (٤٦) . ويحدد كوهن الأنماط الرئيسية لطبيعة النظرية النسقية بثلاثة أنماط :

١ – أما النمط الأول فيسميه بالنظريات التحليلية وهى تماثل النظريات المنطقية والرياضية ، تلك التى لاتحدد شيئا يتعلق بالعالم الواقعى ، ولكنها تتشكل من مجموعة من القضايا البديهية التى تكتسب صدقها من خلال التعريف ، والتى يمكن إشتقاق قضايا أخرى منها .

٢ – ويسمى النمط الثانى لنظرية بالنظريات المعيارية وهى التى تحدد مجموعة من الحالات المثالية التى يرغب فيها الانسان ، ويتعلق هذا النوع من النظريات بالمسائل الأخلاقية والجمالية .

٣ – أما النمط الثالث فهو النظريات العلمية ، وفى شكلها المثالى نجدها عبارة عن صياغة شاملة وامبيريقية ، تؤسس علاقة بين نموذجين أو أكثر من الوقائع . وفى أكثر مستوياتها بساطة نجدها تتخذ الشكل الذى يتمثل فى انه حينما تقع (أ) فان (ب) لابد أن تقع ، وعادة ماتتميز النظرية العلمية بالشمول (٤٧) .

ومن الواضح أن النظرية السوسيولوجية يمكن أن تتضمن الأنماط الثلاثة التى أشار اليها كوهن فهى ينبغى أن تكون ذات بناء منطقى . الى جانب أن العلاقة المنطقية ذاتها عادة ماتكون علاقة بين مفهومين أو أكثر يشيران الى متغيرات واقعية محددة ، وهو مايجعلها تستوعب النمط الثالث . وبطبيعة الحال فإن النظرية السوسيولوجية على اختلاف نماذجها عادة ماتكون لها متضمناتها الأيديولوجية أو مثلها وتفضيلاتها المعيارية التى تكمن وراء قضاياها العلمية ومن ثم فنحن نرفض ذلك التنميط التعسفى الذى أسسه بيرسنى كوهن ، ونرى فيه تجزئة لحقيقة واحدة .

## ثانيا : بناء النظرية السوسيولوجية ، عناصره وعملياته

يعتبر بناء النظرية واكتمال تأسيسها دالة على نضج واكتمال النظام العقلى الذى تنتمى اليه ، ذلك لأن النظرية هى التى تتولى ترشيد حركة العلم ، من حيث انتقاء المشكلات التى ينبغى التصدى لها ، ثم منطق التناول العلمى الذى ينبغى أن يكون . ويتطلب تحليل بناء النظرية العلمية ، وخاصة النظرية السوسيولوجية ضرورة التركيز على ثلاثة جوانب أساسية .

الجانب الأول : وهو مايمكن أن نسميه مجازا بالبناء المورفلوجى للنظرية أو مكوناتها الأساسية ، ونعنى بها العناصر الأساسية لأى نظرية علمية مشخصه بشكل ثابت غير متفاعل .

أما الجانب الثانى : فيتمثل فى العمليات الدينامية لبناء النظرية العلمية . سواء تلك العمليات المتعلقة بتأسيس النظرية ، أو تلك الخاصة بأعمالها فى عمليات البحث المختلفة ، أو التى تركز عى صياغة النظرية العلمية لتحديد مبادئها الأساسية .

أما لجانب الثالث : فيتعلق بوظيفة النظرية بالنظر الى نسق التفكير العلمى للنظام العقلى الذى تنتمى اليه كاطار لها ، وبالنظر الى النسق الاجتماعى كاطار لأعمال فاعليتها .

### ١ - بناء النظرية العلمية ، العناصر الأساسية

تجمع مختلف المواقف النظرية على أن النظرية العلمية تتركب من ثلاثة مكونات أساسية لازمة لتأسسها كنسق نظرى ، وان غياب أى من هذه العناصر ، يعنى أن النظرية مازالت فى طور الإكتمال وأنها لم تكتمل بعد . أى مازالت مشروعا نظريا ناقصا . هذه العناصر هى القضايا النظرية ، أو التوجيهات النظرية العامة ، وأحيانا مايطلق عليها اختصارا النظرية أو القوانين النظرية . وتمثل القضايا أو القوانين الامبيريقية العنصر الثانى ، ويمكن ضمها الى العنصر الأول لتشكل معاً مستويين لعنصر واحد . أما المكون الثالث فيتمثل فى البناء المنطقى

الذى يضم المستويين السابقين من القضايا أو القوانين ، بالاضافة الى العمليات الأساسية لبناء النظرية ، تلك التى تشكل اطارات التفاعل بين مستويات قضايا النظرية من ناحية ، وبين النظرية ككل والسياقات المحيطة بها من ناحية أخرى (*) .

ويشكل النوع الأول من القضايا أو القوانين – التوجيهات النظرية العامة – المبادئ الأساسية لأى نسق نظرى ، حيث يرتبط أساسا برؤيته واجراءاته المحددة فى النظر الى الواقع ودراسته . فى اطار ذلك يؤكد روبرت ميرتون أن التعميم النظرى ينبغى أن يكون محددا لكى يساعد على الملاحظة أو التجربة المحورية ، هذا بالاضافة الى ضرورة تساند التعميمات النظرية بعضها مع البعض ، لكى تشكل فى مجموعها بناء نظريا يمتلك درجة عالية من التماسك المنطقى (٤٨) . أما القضية النظرية فعادة ماتشتق أساسا من البناء النظرى .

أما النوع الثانى من القضايا أو القوانين الامبيريقية ، فلا تعتبر النظرية مصدرا أساسيا له . فالتعميم أو القضية الامبيريقية قضية منعزلة تلخص العلاقات المطردة والملحوظة بين متغيرين واقعيين (٤٩) ، ويزخر الفكر السوسيولوجى بهذا الطراز من التعميمات التى تحتاج الى اعادة صياغتها فى اطار بناء نظرى ، ويوفر التنوع الهائل لهذا النموذج من القضايا المادة الخام لتأسيس النظرية فى علم الاجتماع .

ويشكل البناء المنطقى العنصر الثالث فى بناء النظرية . وللبناء المنطقى معنيان ، الأول يتمثل فى أنه أيا كان المدخل الى تأسيس النظرية ، سواء كان ذلك تصعيدا عن طريق التعميمات الامبيريقية ، أو أنها تولدت من خلال التأليف بين القضايا النظرية ، فان النظرية ينبغى أن تكون على درجة عالية من الدقة التنظيمية ، بحيث يتخذ شكلها النهائى شكل النسق الاستنباطى ، وبالنظر الى ذلك نجد أن الافتراضات الأساسية للنظرية لاتحدد شيئا سوى بناء العلاقات المجردة . وبذلك فان الإفتراضات الأساسية للنظرية تتشكل من مجموعة من المسلمات المجردة التى تشتق مصطلحاتها معانيها من خلال مكانتها فى اطار هذه المسلمات . ومن ثم فما دامت المصطلحات تتحدد بواسطة مسلماتها ، فان هذه المسلمات لاتحدد شيئا واقعيا . فهى بذلك أشكال قضايا وليست قضايا ، ويمكن استكشافها عن طريق اشتقاق قضايا أخرى

---

(*) يطلق ايرنست ناجل على القضايا أو القوانين النظرية مصطلح نظرية Theory، بينما يطلق على القضايا أو القوانين الامبيريقية مصطلح القوانين التجريبية Experimental Laws، وذلك يرجع الى أنه قد انطلق الى فلسفة العلم من خلال كونه متخصصا فى العلوم الطبيعية وليس الانسانية .

منها وفقا لقواعد الاستنباط المنطقى . وبايجاز فان النظرية العلمية الدقيقة البناء ينبغى أن تمتلك بناء منطقيا يشكل هيكلها الأساس [٥٠] ، ويتعلق المعنى الثانى للبناء المنطقى بالترتيب الذى تتخذه قضايا البناء النظرى . بحيث يحدد البناء المنطقى قضايا النظام أو المستوى الأعلى ذات الطابع النظرى ، وقضايا النظام أو المستوى الأدنى ذات الطابع الأمبيريقى . ثم طبيعة العلاقة الوظيفية المتبادلة بين نوعى القضايا أو التعميمات من خلال العمليات المرتبطة بالتفاعل الداخلى للبناء النظرى ، وهى عمليات اشتقاق الفروض والتأسيس الافتراضى للنظرية ثم عملية تنظيم المعطيات الأمبيريقية فى شكل اطار نظرى [٥١] .

## ٢ - بناء النظرية السوسيولوجية ، عملياته الأساسية

فى اطار هذه الفقرة ، سوف نتعرض للعمليات الرئيسية التى من خلالها يتأسس بناء النظرية السوسيولوجية منذ بداية كونها معطاة يطرد وقوعها نسبة الى بعدى الزمان والمكان ، وحتى تأسيس التعميم النظرى العام . أو منذ بداية كونها توجيها فلسفيا عاما ، وحتى اكتسابها طابع القضية العلمية القادرة على توجيه البحث الأمبيريقى المرتكز على تناول معطيات الواقع واطراداتها . وسواء بدأنا صياغة التعميم النظرى من هذا الطريق أو ذاك . فان انجازه وتأسيس اطار نظرى يتضمنه لابد أن يمر من خلال اربع عمليات رئيسية وهى التأسيس Construction والتنظيم Codification والاشتقاق Derivation والابداع Creation وسوف نعرض بايجاز لكل من هذه العمليات .

### (أ) التأسيس : Construction

وتعتبر عملية التأسيس من أهم العمليات المتصلة ببناء النظرية وأخطرها . اذ يعتبر تأسيس النظرية محاولة لانشائها بدقة ، وفقا لخطة يمكن الدفاع عنها بالاستناد الى فهم واضح للمسلمات . والاختلاف بين القضايا التحليلية والتركيبية ، واختلاف التعريف عن البرهان ، الى غير ذلك . ويعتبر تأسيس النظرية جهدا خاصا يهدف الى صياغة بعض القضايا النظرية التى تعتبر مقدمات منطقية أو تتضمن مبدأ منهجيا عاما واضحاً قابلا للاختبار الامبيريقى [٥٢] . وتتبع عملية التأسيس النظرى فيما يتعلق بصياغة النظريات المتوسطة المدى وليست النظريات الشاملة ، ومن ثم فمن المستحيل أن يحاول أحد العلماء استخدام تكنيك تأسيس النظرية لصياغة نظريات ذات طابع شامل كالنظرية البارسونزية أو النظرية الماركسية مثلا . وبصفة عامة طبق علماء الاجتماع المهتمون بقضايا المنهج والاجراءات العلمية تكنيكات تأسيس النظرية

لاهتمامهم بتطوير نظريات تغطى مجموعة من المشاكل الواقعية الاضيق نطاقا من تلك التى يهتم بها منظرو النظرية العامة . ومن هنا نجد أن معظم الفكر المتعلق بالتأسيس الإفتراضى للنظرية يدور حول التفسيرات النظرية للمعطيات موضع الاهتمام ، مع تأكيد العلاقة بين هذه التفسيرات وقضايا النظرية الاكثر عمومية (٥٣) . ويتطلب تأسيس النظرية توافر عديد من القضايا النظرية ذات الصلة بالمشكلة موضع الاهتمام . وينبغى أن تكون هذه القضايا واضحة ومختصرة . والى حد واضح لايهتم مؤسس النظرية بانشاء نظرية جديدة تماما بقدر مايهتم بخلق ارتباطات جديدة للقضايا النظرية بحيث يمكن أن يقود ذلك الى تفسيرات جديدة . وحيثما تتطلب الحاجة الى قضايا جديدة ، فان المؤسس النظرى ( المنظر ) عادة يلجأ الى الاسلوب الاستنتاجى inductive عن طريق التعميم من النتائج البحثيه . ولتوضيح ذلك نذهب الى أنه اذا افترضت احدى النظريات أن أ ، ب تربطهما علاقة حتمية ، واذا افترضت نظرية أخرى أن ج ، د تربطهما علاقة حتمية أيضا ، فانه اذا تأكد بالدليل أن ب ، ج تربطهما علاقة حتمية ، فان اضافة هذه المعلومة الاخيرة تمكن من تأسيس قضايا نظرية فيما يتعلق بالعلاقة بين أ ، ب ، ج ، د على أساس من قضايا النظريتين الى جانب بعض المعطيات الاضافية ، مع ملاحظة أن الفرض الذى قاد الى تأسيس العلاقة الاضافية ( ب ، ج ) لم يشتق من أى من النظريتين (٥٤).

وينبغى أن يكون واضحا عند تأسيس النظرية أن تكون لدى المنظر فكرة واضحة عن نموذج النظرية التى ينتوى ابتكارها . ذلك لأن النظريات الاجتماعية لاتقول أشياء مختلفة فقط ، ولكنها تقولها بأساليب متباينة كذلك . ومن ثم فعلى المنظر أن يحدد منذ البداية ماهى بنية النظرية التى ينتوى تأسيسها (٥٥) ، ثم ما هو موضوعها الأساسى ، وما هو نطاق هذه النظرية . هل تقتصر النظرية على مضمون اجتماعى متماثل ، كأن تقتصر فى معالجتها لموضوعها على نطاق اجتماعى بعينه أسريا كان أو اقتصاديا أو سياسيا ، أو تتضمن تفاعلا اجتماعيا يتقاطع عبر مجالات اجتماعية متباينة . هذا وينبغى التوضيح على تضمن تأسيس النظرية كعملية أساسية على ثلاث عمليات فرعية هى :

١ – صياغة المفهوم Concept Formulation ، اذا يعتبر صياغة المفاهيم من المهام الرئيسية لتأسيس النظرية . والمفهوم كما نعلم – عبارة عن اسم أو رمز لفئة من الوقائع والأفكار ، وقد يكون المفهوم ذا دلالة واقعية تتأسس بالنظر الى الملاحظات الواقعية ، أو قد يكون مجردا بصورة كاملة . ومايهمنا فى عملية تأسيس النظرية المفهوم بالمعنى الأول . بيد أن التساؤل الذى يطرح نفسه يتمثل فى ماهية الاجراء الذى من خلاله يمكن

صياغة مفهوم يعبر عن فئة من المعطيات الواقعية ، لكى يصبح بدوره – حين اكتمال صياغته – وحدة أساسية فى تشييدات نظرية تالية ؟ يجيب على ذلك ليان جروس Lie-wellyn Gross بتأكيده أن ذلك يتحقق حينما نضع مجموعة من الملاحظات الفجة بشكل مباشر فى اطار مجموعة من المقولات التى نسميها مفاهيم . ومن الضرورى التركيز على ضرورة توضيح الحدود بين مجموعات المناشط التى تصبح المفاهيم رموزا لها ، وذلك بهدف اشاعة نوع من الوضوح النظرى (٥٦) .

٢ – تأسيس القضية النظرية : فى أعقاب فراغنا من صياغة المفهوم فاننا نعمل على خلق الصلة بينه وبين مفاهيم اخرى فى اطار قضية حتمية . فاذا استطعنا تحديد مفهوم كمفهوم الانتحار – كما حدده دوركيم – فاننا نجد أن الانتحار – كمفهوم – يتصل بالضغوط الاجتماعية – كمفهوم آخر – التى يتعرض لها المنتحر . فى اطار ذلك فان مانعنيه بالضغوط الاجتماعية كمفهوم يصبح ذا اهمية قصوى فى عملية التأسيس النظرى ، مادام التعرف عليها يمكن أن يصبح أساسا لنظريات عن الشخص الذى يميل الى الانتحار ، ومن ثم فسوف نطرح أهمية ملاحظة الضغوط الاجتماعية التى تقع على البشر ويكون من نتاجها – برغم الصعوبات الكثيرة التى تتعلق بملاحظة ذلك – تأسيس قضية تجريبية تتعلق بالعلاقة بين مفهوم الانتحار ومفهوم الضغوط الاجتماعية .

٣ – اضافة قضايا نظرية ، فاذا اضيفت العبارة – كما فى المثال السابق – فى شكل ( ان الضغوط الاجتماعية توثر على ميل بعض البشر نحو الانتحار ) . فاننا نجد أنه وان صاغ المنظر مفهوم الانتحار والضغوط الاجتماعية ، فانه يجد نفسه مضطرا الى تحديد طبيعة هذه العلاقة . ونحن وان كنا لم نلاحظ التأثير ، إلا أننا أدركناه من خلال مؤشراته . ومن ثم فالمفهوم المعبر عن هذه العلاقة يعتبر أكثر تجريدا من مفهوم الانتحار والضغوط الاجتماعية . وحينما يبدأ مؤسس النظرية فى العمل على مستويات متباينة من التجريد ، فان عليه أيضا تأسيس العلاقة الكائنة بين هذه المستويات ، وعادة ماتشكل الأخيرة البناء المنطقى الذى يتكون من مجموعة العلاقات التى تضم هذه المستويات بعضها مع البعض .

نتاجا لذلك تتأسس لدينا نظرية ذات قضايا ومفاهيم بعضها تمت ملاحظته امبيريقيا وبعضها له طابعه النظرى التحليلى . ومن المثال السابق اذا قلنا ان مفهوم الانتحار والضغوط الاجتماعية مفاهيم ذات طابع امبيريقى ، فان مفهوم التأثير influence يشكل المفهوم النظرى

فى هذا المثال . وهو يصاغ بطريقة تجعل منه متغيرا Variable اذا أعملناه فى حالات واقعية فان مدى تأثيره يبدأ من صفر وحتى أقصى مستوى . وحينئذ يكون باستطاعتنا أن نشتق الفرض القائل انه كلما كان تأثير الضغوط الاجتماعية هائلا ازداد الميل الى الانتحار عنه لو كانت الضغوط الاجتماعية فى مستوى الصفر ، اذ يفترض حدوث التأثير من خلال الضغوط الاجتماعية كوسيط لذلك . بيد أن هذا لايمنع من تدخل متغيرات أخرى فى احداث الانتحار ، ومن ثم يمكن تضمينها فى قضايا مثلما حدث فى القضية السابقة . بحيث أنه كلما زادت قضايا النظرية والمتغيرات التى تضمها زادت النظرية تعقيدا واكتمالا . ولتحقيق ذلك فان على مؤسس النظرية أن يتنبه بشكل محدد الى نماذج وأنواع المصطلحات ، والى وضوح الشكل المنطقى ، وأيضا الى تفاصيل التعريف ودقته ، وقبل كل شئ فان على مؤسس النظرية أن يكون مستقيم التفكير وان يكون يقظا فى استخدام تكتيكاته (٥٧) .

## (ب) تنظيم القضايا : Codification

بينما يتركز جهد التأسيس النظرى حول تحديد طبيعة المفهوم ، ثم العلاقة بين المفاهيم حتى تأسيس القضية النظرية . فان تأسيس النظرية يحتاج بالاضافة الى ذلك تنظيم مجموعة القضايا التى تم التوصل اليها فى اطار شكل منطقى منتظم ونسقى ، وهى العملية التى يطلق عليها التنظيم Codification . والتنظيم كما يعرفه روبرت ميرتون هو الترتيب المنتظم والمحكم للتجربة المنظمة والمثمرة التى يتم انجازها بواسطة اجراءات البحث والنتائج العينية التى تنتج عن الاستفادة من هذه الاجراءات (٥٨) . وعلى هذا النحو يهدف التنظيم الى تنسيق to systematize التعميمات الامبيريقية المنفصلة ، والتى تقع فى اطار مجالات متميزة أو منفصلة للسلوك ، أو تشير اليها ، وبذلك نجد أن التنظيم هو المحاولة الارادية لتأسيس العروض المؤقتة ذات الدلالة والتى تبشر بتوسيع نطاق النظرية القائمة . بالاضافة الى ذلك فان الصياغة النظرية من خلال التنظيم عادة ماتوضح القضايا النظرية التى يمكن اغفالها بينما تبقى على القضايا الأخرى التى تصمد أمام البحث الامبيريقى ، ومن المسلم به أن التنظيم كاجراء منهجى يكمل الاشتقاق الصورى للفروض التى ينبغى اختبارها ، بحيث ييسر ذلك السعى الحثيث الى تأسيس النظرية السوسيولوجية الفعالة والبحث الامبيريقى الملائم لها (٥٩) .

وكاجراء منهجى فانه لتأسيس النظرية لابد من وجود تعميمات امبيريقية متعددة ، وفرها

البحث الامبيريقى الموجه نظريا فى مختلف مجالات الواقع الاجتماعى ، بالاضافة الى التراكم الذى يتحقق من خلال توافر هذه التعميمات ونموها . وعلى عكس التأسيس النظرى فان التنظيم يقتصر أعماله على مستوى النظرية الضيقة المدى وذلك بهدف تأسيس النظريات الشاملة . وتعتبر محاولة تالكوت بارسونز من المحاولات الجادة فى تاريخ علم الاجتماع لتأسيس النظرية من خلال تنظيم التعميمات الامبيريقية فى اطار بناء نظرى ، حيث نجده يذهب الى القول فى أكثر من موضع الى ان كم التعميمات التى توفر يحتاج الى اعادة نظر وتنقيح بما يمكن من صياغة نظرية عن توازن النسق الاجتماعى ، من خلال تنظيم التعميمات الامبيريقية التى توافرت فى اطار علم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا . بالاضافة الى ذلك نجده يؤكد أن كم المعرفة الامبيريقية الذى توافر حتى الآن يتيح لنا أن نبدأ فى صياغة نظرية عن التغير الاجتماعى (٦٠) .

يضاف الى ذلك أنه اذا كان التأسيس الافتراضى للنظرية يتم عادة على مستوى المفاهيم الأساسية والتعميمات أو القضايا الامبيريقية كوحدات أساسية فى بناء النظرية . فان التنظيم على العكس من ذلك يتخذ من التعميمات أو القضايا الامبيريقية والنظرية وحدات أساسية فى بناء النظرية السوسيولوجية ، الأعلى مستوى من حيث امكاناتها التحليلية من المستوى اسابق ، والأكثر شمولا لأنها فى الحقيقة ليست سوى اعادة صياغة لمجموعة من النظريات الخاصة ، فى اطار نظرى شامل .

## (ج) الاشتقاق : Derivation

بينما تتصل عمليات التأسيس الافتراضى والتنظيم بصياغة بناء النظرية فى مستوياته المتباينة ، فان الاشتقاق – كعملية تتبع فى بناء النظرية السوسيولوجية – يهتم أساساً بتأكيد كفاءة النظرية عن طريق اعادة تعريض قضايا النظرية فى شكل فروض جديدة تحتاج الى الصدق والاثبات الامبيريقى . وبذلك تتأكد الصلة التى ينبغى أن تكون بين النظرية والبحث الامبيريقى ، وترسخ من استمرار كفاءة النظرية ، عن طريق الاعادة المستمرة لاختبار الفروض المشتقة من بنائها الأساسى . والى جانب ان الاشتقاق قد يعنى محاولة تحديد ملامح بعض البيانات بالنظر الى بعض الفروض المشتقة من بناء النظرية بشأنها ، فانه يساعد فى التحقق من سلامة التفسيرات البعدية التى قد تطرح فى أعقاب اكتشاف أية معطيات أساسية تتعلق بمفاهيم معينة ، أو بالعلاقات بين هذه المفاهيم . هذا وقد كان للاشتقاق الصورى على هذا

النحو فوائد كثيرة فى كل من علمى النفس والاقتصاد ، فقد أدى فى أحدهما الى اجراء سلسلة من التجارب المتتابعة ، وأدى فى الآخر الى مجموعة من البحوث التفصيلية . هذا ويساعد الاشتقاق بشكل عام على تمهيد الطريق نحو البحث المتراكم والمترابط بدلا من الكم الهائل من البحوث المتناثرة التى لا رابط بينها (٦١) .

وبالنظر الى هذه العمليات ذات الأهمية بالنسبة لبناء النظرية ، فاننا نجد أن عمليتى التأسيس والتنظيم تتجهان من أسفل الى أعلى ، بحيث تسبق أولاهما الثانية ، أى من مستوى المعطيات الامبيريقية الى مستوى المبادئ أو التوجيهات النظرية العامة ، فهى تتحه مما هو ملموس وواقعى الى ماهو تركيبى وأكثر تجريدا . هذا فى حين أن الاشتقاق يتخذ اتجاها عكسيا ، من البناء النظرى الى المعطيات الامبيريقية من خلال اشتقاق الفروض من بناء النظرية ثم اعادة اختبارها امبيريقيا ، هذا بالاضافة الى قطع الطريق فى مواجهة أية كيانات نظرية زائفة كالتفسيرات البعدية ، أو تلك التى تظل على مستوى التوجيات النظرية العامة .

## (د) الابداع : Creation

برغم أهمية هذه العملية لاستكمال بناء النظرية السوسيولوجية فانها تعتبر أقل العمليات من حيث مستوى التقنين ، فليس يكفى أن تصوغ مفهوما يشير الى مجموعة من المعطيات الواقعية المتماثلة ، أو تأسيس قضية عن طريق صياغة علاقة اطرادية بين مفهومين ، أو ضم هذه القضايا من خلال عملية التنظيم فى اطار بناء نجاهد أن يكون متسقا ومنطقيا اذ انه لو كان الأمر على هذا النحو فى بناء النظريات العلمية لوجدنا كما من النظريات يقارب تقريبا كم المتخصصين فى نظام عقلى معين . يؤكد ذلك مايذهب اليه ايرنست ناجل من أن النظريات الى جانب انها جهد عقلى منظم فهى تعتبر ( ابداعات حرة ) للعقل (٦٢) . بل أننا نجد باحثا مثل جوهان جالتونج يذهب الى القول بأن توفر التراث العلمى في شكل معطيات أو تعميمات امبيريقية ليس كافيا لقيام النظرية « اذ تعتبر النظرية هى الوحدة المعرفية الوحيدة فى نسق التفكير العلمى التى لاتخضع فى صياغتها للتنظيم . ذلك لأن بناء النظرية يعد انجازا خلاقا ، ومن هنا فان الأمر لايدعو للدهشة حين نجد نفرا قليلا من المشتغلين فى ميدان علمى معين هم القادرون على القيام بمثل هذا العمل . فهناك قفز فوق الادلة المنطقية ، واحساس حفى متصل بالجهد الخلاق . فصياغة النظرية تشبه انجاز العمل الفنى . ومن هنا كانت منهجية النظرية وصياغة النظرية متخلفة بالنسبة لمنهجية الفروض وصياغتها . وأنه يبدو أن نوعى الفلاسفة والعلماء اللذين يعملان على هذين المستويين مختلفين كيفيا (٦٣) .

## ثالثا : النظرية السوسيولوجية : وظائفها الأساسية

سوف نحاول فى هذه الفقرة التعرض لوظائف النظرية السوسيولوجية ذات الطابع العلمى ، أى تلك المتعلقة بنسق التفكير العلمى . وسوف نطرح جانبا الآن الوظائف الأيديولوجية للنظريات تلك التى لها فى مواجهة النسق الاجتماعى ، فى اطار ذلك سوف نذكر بايجاز الوظائف الرئيسية التالية :

١ – فعلى مستوى الصياغة النظرية العامة نجد أن النظرية تحاول أن تشكل الاطار التصورى المشترك بين مجموع الباحثين فيما يتعلق بمجالات ، وموضوعات محددة ، بما ييسر خلق اتصال بين مختلف النتائج والتفسيرات المتعلقة بالحقائق الامبيريقية المتباينة (٦٤) . هذا بالاضافة الى أنها تنظم الكم الهائل من المعرفة الامبيريقية فى شكل اطارات نظرية ، ومن ثم توجه الاهتمام نحو الفجوات القائمة فى بناء معرفتنا (٦٥) .

٢ – وفيما يتعلق بتوجيه البحث اللا امبيريقى، نجد أن النظرية تلعب دورا هاما فى هذا الصدد ، حيث يمكن اشتقاق الفروض الموجهة للبحث من بناء النظرية كامتداد منطقى لتعميماتها . ويعتبر كم الفروض التى يمكن اشتقاقها من بناء النظرية مقياسا لقيمتها وكفاءتها ، بحيث أنه اذا أمكن التثبت من الفرض من خلال التجريب بالنظر الى كم كبير من الوقائع فى عدد من المواقف ، فانه يصعد الى كونه قانونا أو توجيها نظرياً عاما ، يمكن أن تستنبط منه فروض جديدة (٦٦) .

٣ – ويعتبر وصف الواقع من الوظائف الهامة للنظرية فى اطار دراسة النسق الواقعى ، ولانجاز ذلك تلجأ النظرية عادة الى استخدام وسائلها المتمثلة فى المفاهيم والفروض . ويؤكد بارسونز أنه ينبغى أن يكون الوصف كفء Adequate وحاسما فى دلالته deter-minate وتتحقق كفاءة الوصف اذا أمكنه توفير اجابة حتمية وممكنة التحقيق لكل التساؤلات الهامة والمتضمنة علميا . وتتحدد دلالة وأهمية أى من القضايا أو التساؤلات بواسطة البناء المنطقى للاطار التصورى العام الذى يستخدم صراحة أو ضمنا . ويتم استخدام النظرية فى عملية الوصف بالنظر الى مستويين ، المستوى الأول ، حيث يتم الوصف بالنظر الى مقولات الاطار التصورى التى تشكل عناصره اطارا ملائما لوصف النسق الواقعى . أما المستوى الثانى للوصف فيمكن تسميته بالمستوى البنائى ، حيث يتم الوصف بالنظر الى بناء الأنساق . اذ يعتبر البناء هو الجانب الاستاتيكى لأسلوب

المعالجة الوصفية للانساق . ومن وجهة النظر البنائية يتكون النسق من وحدات الأنساق الفرعية التى توجد مستقلة أساسا ثم تساناتها أو علاقاتها البنائية المتداخلة (٦٧) . ويعتبر التحليل هو الوظيفة الثانية للنظرية العلمية فى هذا الصدد ، وبكل الاعتبارات فان التقدم العلمى يتمثل فى الامتداد التدريجى لنطاق التحليل الدينامى . اذ يصبح من المستحيل تحديد النشاط العقلانى والواقعى بدون القدرة على تأسيس العلاقة الدينامية بين الشرط الضرورى الوحيد وبين النتيجة التالية تحت افتراض تساوى الظروف الأخرى عند مستوى معين . ومن هنا فان هدف النظرية العلمية هو أن توسع من نطاق التحليل الدينامى للأنساق المعقدة ككل بقدر الامكان . ويمثل تحقق هذا الهدف احدى الصعوبات النظرية الهائلة بالنسبة للعلم (٦٨) ، ويتميز التحليل الدينامى لمتغيرات الواقع بالنظر الى البناء النظرى المستخدم بخاصيتين أساسيتين :

(أ) أنه من خواص التحليل الدينامى هو تناول مجموعة من الظواهر المتساندة تزامنيا بالمعنى الرياضى لذلك .

(ب) ان من الشروط الأساسية للتحليل الدينامى الناجح ، الارجاع أو الاسناد المنظم والمستمر لكل قضية الى حالة النسق ككل . وهو مايحدث أساسا حينما تستخدم المقولات البنائية فى تناول القضايا الدينامية (٦٩) .

ويشكل التفسير الوظيفة الثالثة فيما يتعلق بدراسة الواقع الإجتماعى التى تؤدى النظرية فى اطارها دورا هاما . واستخدام النظرية فى عملية التفسير يكون بالاستشهاد على وجود علاقة معينة بين متغيرين ، وتطوراتها المستقبلة ، ثم طبيعتها الأساسية بالنظر الى قضايا النسق النظرى ، إذا امتلك هذا النسق القضايا التى تيسر ذلك ، إما فى شكل قضايا من المستوى الأعلى أو مانسميها بالتوجيهات النظرية العامة ، أو فى شكل قوانين تجريبية تؤكد العلاقة التى تصورها بالنظر الى وقائع امبيريقية متعددة .

غير أنه فى أحيان كثيرة - حينما لايتيسر البناء النظرى الملائم - يكون على البحث أن يمارس العملية البحثية بالنظر الى نموذج محدد غالبا مايتولى الباحث صياغته واستخدامه . ويؤكد ايرنست ناجل ان النماذج تؤدى وظائف هامة للنظرية فى اطار البحث العلمى (٧٠) ، وقد تؤدى النظرية دور النموذج بالنسبة لنظرية أخرى كما يرى ابراهام كابلان الذى يذهب الى

القول بأن النظرية بدون النموذج تمارس عملية التفسير بشكل مباشر ، أما النماذج فتفسر عن طريق المماثلة (٧١) .

ولاتقتصر وظائف النظرية على التفسير كاحدى وظائفها الرئيسية ، وانما تساعد معرفة الباحث بالنظرية على التنبؤ بالمستقبل فيما يتعلق بموضوع ما . ويعتبر التنبؤ مسألة نظرية أساسا ، وخاصة أنه ليست هناك معطيات امبيريقية تتعلق بالمستقبل الذى لايكون قد تحقق بعد . غير أن الاستعانة بالدراسات النظرية تيسر استكشاف الأفكار والافتراضات المتعلقة بالعمليات التى يفترض صدقها فى تفسير المستقبل . فى هذا الاطار يؤكد البعض أن باستطاعة العلماء الاجتماعيين انجاز ذلك عن طريق استخدام النماذج والنظريات لافتراض النتائج المتوقعة ، فاذا ماتحقق التنبؤ فانه لايعتبر ممارسة لاقيمة لها تصدر عن برج عاجى ، لأنه ينبغى أن نكون على وعى تام بأن التنبؤ الاجتماعى له جذوره فى النظرية والتفسير السوسيولوجى (٧٢) .